

صور من الحياة :

إنسانية تهاوى !

للأستاذ كامل محمود حبيب



قال لي صاحبي « ما بالك ساهم الفكر مضطرب النفس
مقطب الجبين ، بلوح الأسمى والبعث في نظراتك ، وترون نغفات
الشجى والهم من خلال كلكانك . وعهدى بك متطلق الوجه
مستبشر الخاطر منفرج الأسارير ؟ »

قلت « آه ، يا صاحبي ! لقد عشت منذ الصباح في غمرات
من الألم أراها قاصمة الظهر ، وجهت أن أدفنها عن خيالي
فأدنى أن أمل ، نظرت إليك علك تخفف عن قلبي بعض ما أنقله
حين تراءت له النفوس وقد فضبت من الإنسانية وصفرت
من الرجولة : »

قال « هاها ! »

قلت « هي قصة رجل عصرته الحياة بين فكين فليظنين من
وطأة الملة وشره المال فما أفاق إلا على دوى يؤرق نفسه
وبشر همه ... دوى ينذر به أنه أوشك أن يفقد حياته وماله
في وقت مما . »

هو رجل طوى عمر الشباب ينظر إلى الدنيا بيمينين فيهما
فرحة الأمل ولمة الرجاء ، ومن حواليه صبية ستار رفوف رقيقاً
حلوا ينفت في قلبه الهمة والنشاط وينذر في روحه الهدوء
والطمأنينة ، فهو يرى فيهم نوراً يتأان فيبدد ظلمات من العيش
تكاثفت أمامه منذ أن مات عنه أبوه وخلفه وحيداً في خضم
الحياة تنقاذفه أمواجه المائتة لا يجد المون ولا الساعد ولا الناصح
فراح يتخبط على غير هدى .

وأحست الحياة بوحدة الصبي وضياعه فبست له وبسرت
لا ترح ولا تشفق ، ولكن شيئاً من ذلك لم يقعد به عن أن
يشق طريقه في أناة وسبر ، ولا عن أن يندفع على سننه في قوة
وعناد ، لا يعبأ بالغلظة ولا بضيق بالجفوة ، حتى أساب طرفاً من

نجاح فأصبح موظفاً صغيراً في الحكومة وانطوت السنون .
ثم جاءت الهمة الكبرى فأصيب بذات الرئة ، وأحس بالداء
يسرى في دمه فما اضطربت نفسه ولا ضاقت به الحيلة ، وبين يديه
ألف جنيه ، ورث الهمض وادخر الهمض ، فهو يستطيع أن
يشترى الطبيب والدواء في وقت مما ، فانطلق إلى طبيب من ذوي
العصيت والعلم يطب لدائه ، ومن أمامه ألف شماع من أمل وألف
نزوة من كبرياء . ووقف بإزاء الطبيب يحدته « وأنا - ياسيدي -
ادخر ألف جنيه لأضن بها على من يسج على دأى فيجربوني
بالشفاء ، لأجد في الصحة مقمة صبية صغار يترجون أباهم »
وتحجب وبق الطبيب فلبس ثوب الثمل وهو يقول « لا عليك ،
فهذا داء قريب البرء عاجل الشفاء . »

واطمأن المريض لكلمات الطبيب . وأمسك الطبيب بالسماعة
ليسمع دقات جيب المريض ، ثم أمسك بالقلم ليكتب له الدواء
الذي يؤجل الشفاء ويعد في عمر الداء .

واطمأن المريض إلى العلاج الذي لا يفتى ولا يشقى ، على
حين قد عمى عن يد الطبيب وهي تتسلل إلى جيبه في دهاء ومكر
لتستلبه ميراث أبيه ووفر عمره . وأحس - بادى دى يده -
أن الصحة تسرى في عروقه وتأتان على صفحة وجهه فاطمأن
وهدأت جائشته ، ثم ما لبث أن شعر بالخور والفتور والضعف
توشك جيماً أن تصطب بهمته ونشاطه وشبابه ، فانطلق إلى
الطبيب يستعينه على الأمر ويبدل له الوفر ، غير أن الطبيب أمسك
بالقلم - مرة أخرى - ليكتب له الدواء الذي يؤجل الشفاء
ويعد في عمر الداء .

وربط المريض حبله بحبل الطبيب الذي أخذ يحتله عن صحته
وماله ، ووصل سبيه بسبيه فما ينطوى عنه إلا ريثما يعود إليه ،
والطبيب ينظر إليه - في كل مرة - بيمينين فيهما معنى
الفرارة والفتك ، يرى مريضه ينهاوى تحت ضربات الرض
الجاثية فلا ينبض قلبه برحة ولا تحقق روحه بشقة ، ثم لا يجد
في نفسه إلا معانى الأرضية الوضيعة تتوثب في شره تريد أن
تقترس أو تلغ في الدم ، فراح يستلب مال الرجل المسكين لينفض
بيت أو تهدم أسرة .

والطبيب في مهنته منطلق يشبه منطلق القذاب أمام الشاة :

منطق القتل والسلب؛ منطق الجزار ينفذ المذبة في بحر الشهمة
ليشخب دمها بين يديه نضاراً خالصاً يستحيل إلى دار أو إلى عزبة
أو إلى متعة نافمة .

والطبيب — في رأى الناس — رجل فوق القانون ، لأنه
يقتل بمشروط من القانون ويسلب بدهاء من القانون ويسرق بحيلة
من القانون ويخدع بإذن من القانون .

وهو — في رأى نفسه — رجل بذل العمر والمال ليتعلم العلم
الأرضي الذي يتلف على المال ويمهد للمادة ويتداعى أمام الجنيه
ثم هو — بعد ذلك — يترفع على الفقير والمسكين وذى الحاجة ...
العلم الأرضي الذي يقاس بالقرش والجنيه ويقوم بالبرهم والدينار
لا تسطع فيه روحانية السماء ولا سمو الروح .

وهو — في رأى السماء — روح الجفنة التي تكشف البلاء ،
ويد الله التي تزيح الشقاء ، ويلمس النفس التي تجرد القماء .

فيا لشقاء أهل الأرض من طبيب يتعلم العلم الأرضي الذي
تلتصق دواعيه — أبدأ — بالتراب .

وربط المريض حبله بحبل الطبيب ، وتراخى الطبيب وأهل ،
والمرض يستشري ويتشبث ، وبضت سنة كاملة ، استحال —
من بعدها — الداء الذي كان قريب البرء إلى علة ما لها من
دواء ... إلى السل . وأحس الرجل بالسل يخترق قوته على حين
قد غضب معينه وصغرت يده .

وانسابت الحسرة في قلب الرجل فهو لا يجد المال الذي يدفع
به المرض ، ولا يجد المصحة التي يكسب بها المال . وهو يضن
بصناره الأحياء أن يصيبهم المرض الخبيث الذي تغفل في رثته ،
ويشفق عليهم أن ينالهم عن الفقر ، فراح ينظر إليهم — من بعد —
في رقعة لا تجد متنفساً .

وجلس الرجل — ذات ليلة — إلى زوجته يتحدثها حديث الداء
المضال الذي كتم عنها خبره منذ أن أصابه ، فأنخرطت في بكاء
مر ... بكاء المرأة تحس مرارة الفاقة ولذع الموز وفقد المائل .
وترأى إلى الحكومة خبر المرض الذي يفرى الرجل ففدفت به

إلى الشارع .

وانطلق الرجل في شدة الملم ولأراء الألم ... انطلق إلى
الطبيب يكتف له عن ضنا نفسه وشجو قلبه فأشاح عنه بوجهه
وهو يقول في غير اكتراث « الآن لا ممدى لك عن أن نذهب
إلى مصحة حلوان » .

لا عجب فقد طارحه الطبيب بمد أن استنزف ماله وامتنص
وفره ، طارحه لأنه نزل عن إنسانيته ورجلته لقاء دويهمات .
وألقى الرجل السلم عن يد خيفة أن تنقل المدوى إلى أحبابه :
زوجته وأولاده .

ودخل الرجل المصحة خطماً يئن من عوز ومن ضعف .
ووضع طبيب المصحة يده ثم رفعها وقد أربد وجهه وتقطب جبينه
وتيقظت إنسانيته ، فجلس إلى المريض الواهي يسأله أيمرف قصة
رجل ضيعه طمع طبيب ليس من بني الإنسان . وأحس الرجل
بالهر والإعياء من طول الحديث فألقى بنفسه على فراش وعلى
وجهه سمات الجهد والضنا . ونظر طبيب المصحة في غيظ وإشفاق
ثم قال « آه ، لو أن قانوناً يقول : النفس بالنفس ... ! »
ثم هزم على أن يحجب موات الأمل في نفس هذا الليل المتداعى
ليكون روح صبية صفار يترجون أباهم ، فأصر على أن يستأصل
الداء من جذوره رغم أن المريض لا يقوى على وطأة المخدر لضعفه
وتهالكته . وأمسك الطبيب الطيب بالنشارة وقد ضلوع المريض
وهو يرى ويسمع ويحس ويتألم ولكنه كظم صيحات نفسه
فلم ينبس بكلمة .

وخرج المريض من المصحة ، بعد حين ، ليرى ...
قال صاحبي « وخرج المريض من المصحة ، بعد حين ، ليرى
الطبيب الذي غاله ماله وأسكبه من صحته وختله عن شبابه ...
ليراء ما يزال في عيادته ذئباً بين شياه ، يستمتع بالأمن والسلام
لأنه فوق القانون ، يقتل بمشروط من القانون ويسلب بدهاء
من القانون ويسرق بحيلة من القانون ويخدع بإذن من
القانون ... ! »

لأس محمود مبيب